طه حسين والأسئلة الصعبة

Taha Hussein and difficult questions

مدني مدور*

جامعة العقيد الحاج لخضر- باتنة 1-

البريد الالكتروني: madanimeddour@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:30-04-2021 تاريخ القبول: 05-07-2021

ملخص:

السؤال له أهميته القصوى في القراءات الفلسفية الحديثة والمعاصرة ، لأجل ذلك حاولنا من خلال هذه الدراسة أن نتوقف لدى المحاور الكبرى في التجربة الفكرية والأدبية لعميد الأدب الدكتور طه حسين ، حيث اتضح أن العمود الفقري لتجربته سيكون ممثلا أساسا في تلك الأسئلة التي طرحها على التراث ، والأدب ، ومصير الأمة الذي يشكل الأدب والثقافة أحد أوجهه...لأن السؤال مهم جدا في الحياة الأدبية لأجل ذلك فإن الإجابة تظل متاحة أمام الجميع ليسهم فيها .

الكلمات المفتاحية: أدب؛ سؤال؛ جواب؛ نشر؛ نقد.

Abstract:

Questions have always been o a great importance in the contemporaneous and recent philosophical readings. This motivates us to try through this study to rethink the main axis of the intellectual and literary experience of Taha Hussein considered as the dean of the Arabic literature. It has been confirmed that the essence of his experience will be constituted of those questions he had asked about heritage, literature and the destiny of the nation which some of its aspects are represented by culture and literature. Because question I very important in our life, thus answer may be given by any one in order to contribute in founding a pertinent one.

Key words: literature, question, answer, publishing ;critical.

* - **المؤلف المُراسل.**

مقدمة:

كل نهضة حضارية حتى يتم تحقيقها ، يجدر بها أن تكون قادرة على طرح أسئلتها الخاصة، بموقفها من ماضي سبقها أو حاضر يلازمها أو مستقبل متربّص بها، تلك الأسئلة هي في حقيقة الأمر بمثابة إشكاليات عالقة ، تكون الإجابة عنها أو الإشتغال على تقديم الإجابة اللازمة لذلك، هي عبارة عن الإنخراط في قضايا الزمان والمكان، التي تسهم مباشرة في التأسيس للتوجهات الجديدة لميلاد فجر أمة عانت طويلا من التخلف .

(السؤال)، -إذًا- هو المفتاح، لأجل ذلك سأعتبر أن طه حسين، في الحقيقة إذا أردنا أن نتأمل إِسهاماته الفكرية والأدبية والتاريخية، وقراءاته الثقافية، ضمن مشهد موحّد، يكون بمثابة القاسم المشترك، سنقول: أنه كان صاحب أسئلة صعبة، قد تصل أحيانا أن تكون صادمة! ذلك لا لشيء، فقط لأن الذهن العربي الإسلامي، استكان إلى قناعات بعينها وتعوّدها وباتت يقينا مطلقا لا يقبل المراجعة أو النقاش، وتحوّل معها المشهد الحضاري، إلى شكل من الممارسات التقليدية التي تمرّر عبر التلقين، وصارت نوعا من السلوكات التي تدور في فلك المسلمات، ومعه أصبحت المعرفة ضربا من الدوغمائيات الجامدة المتكلسة، وكان أن توقفت هذه الحضارة عن الإنتاج الفكري والإبتكار العلمي والتأثير الثقافي، وأعرضت عن استيعاب التحول التاريخي، واستبدلته بنشدان منجزات العصور الأولى .

إنّ طه حسين برع في طرح أسئلة صادمة حيال هذا الواقع، حيث كان يعمد باستمرار إلى تقديم وجهة نظره من تلك المسألة أو شبيهتها، وفق أسئلة تعبّر عن شحنة من الحيرة والإرتباك حيال القضية محل المعالجة، التي تقتضي إجابة فورية. غير أن (السؤال) يتطلب من الأمّة وعلمائها بذل مزيد من الجهد والتفكير المعمّق إما للدفاع عن وضع لا يراد تغييره وبالتالي إسكات هذا اللسان المشاكس، حتى يستمر التمسك بواقع الحال، وإما الإستجابة لروح العصر، ومنه فتح باب الإجتهاد، وإدراك حجم المسؤولية التي يجدر أن يتحملها الجميع ، وبذلك ينبغي أن تتحرك الأقلام للبحث والتثبت وتقديم الأجوبة اللازمة في كلتا الحالين.

طه حسين، طرح أسئلة على التراث، حيث شملت الأدب الجاهلي والتاريخ الإسلامي والآداب اللاحقة وهناك أيضا أسئلة ستبلغ حدّا من الجرأة؛ طرح بعضها على المسلمات الحميمية المتعلقة بالنص الديني، وإذا كانت تلك المضامين محل الإستفهام قد ارتبطت بالماضي ، فإن الحاضر أيضا تمت مواجهته بالعديد من الأسئلة، ستنصرف إلى طبيعة الأدب الذي تشهده الأمة العربية ومن ثم

وظيفته، ويأتي سؤال التجديد ملحا كذلك، دون أن ننسى أسئلة تبني خيار التوجه العقلاني. وتتمة المشهد في معركة طه حسين، أن يطرح أسئلة قد يظل بعضها عالقا، على ضرورة اصلاح حال الأمة والتوجه إلى التجديد في مختلف المجالات لتحقيق المستقبل المنشود، إنه الحلم الكبير لصناعة حضارة، وبالتّالي تبني تجديد المؤسسات الفاعلة في الأمة كجامعة الأزهر، ومؤسسات التربية والتعليم ، وإعادة النظر في أساليب التدريس والأخذ بمبدأ الإنفتاح على بقية الأمم.

تلك الأسئلة التي صاحبت مشروع طه حسين، خلال رحلة انجازاته الفكرية والأدبية، قد تأتي صريحة ومباشرة، وقد ترد مضمرة تفهم في خلال سياق الكلام، تدلل عليها تلك الحيرة التي توشك أن ترسم الحسرة على مآلات الأمة وتخبطها في التخلف، إنما تكمن الأهمية في (السؤال)، من جهة إثارته لإشكالية عالقة أو نفضه الغبار عن إشكالية تم فحصها في عجل؛ وكل ذلك يأتي متجذّرا في اللحظة الراهنة مرتبطا بقضايا الأمة وأزماتها المتشعبة.

1- أسئلة ماكان: إنّ (ما كان)، يتعلّق بماضي الأمة العربية الإسلامية، الذي يزخر برصيد من التراث المكتوب، الموزع على شتى المجالات المعرفية والفنية ، ولأن الموقف من استخدام هذا التراث تفاوتت بخصوصه الآراء، بين من سيتبنّى آراءه ومضامينه وسيستميت في الدفاع عنها بغرض الأخذ بهذا الموروث مطلقا لخدمة العصر الراهن، تحت مبرّرات عديدة، وأن ذلك وحده كفيل بالنهوض بأحوال الأمة بل أن حال الأمة بالتالي لا يصلح إلا بما صلح به حال الأوائل؛ وإذا ظهر ما يتعارض مع ما ذهب إليه هذا الفريق، فإن المشكلة تكمن في الواقع الذي لم يستجب لهذا التراث الفائق مقابل الواقع المأزوم. في حين سيأتي التوجه الثاني ليضع مسافة بينه وبين التراث، حيث يعمد هذا الفريق إلى تقديم الواقع المكاني والزماني، ويحاول فهم هذا التراث القديم وفق حاجات الراهن، وبذلك سيضع هذا التراث أمام المساءلة وعدم التسليم، إن الأمر سيكون أقرب إلى خلق نظرة واقعية تنطلق من مسلمات عقلانية، مفادها أن القدماء اجتهدوا وفق ما اقتضته اِشكاليات عصرهم، والمحدثون كذلك لهم أن يبذلوا المساعي ذاتها وفق ما يخدم عصرهم واشكاليات هذا العصر .

إنّ طه حسين ينحاز إلى الفريق الذي ينشد الواقعية بدل المثالية، المساءلة بدل التسليم، الإجتهاد بدل التقليد؛ من هنا سيركن بآرائه إلى عدم الإقرار بخط السكينة الذي يحدث بفعل التسليم، حيث يقول: "تعودت دائما أن أؤثر سخط العقول على رضاها وأن أحب لها القلق وأكره لها ما يمكن أن تضطر إليه من هذا الأمن المخيف، الذي ينتهي بها إلى الفتور وإيثار الدعة

والإطمئنان الذي يحبب الراحة ...ويغريها بالكسل ويزين لها الاستسلام والتسليم أيضا".1 إنها حالة من الرفض ، حالة من الترقب، نوع من التأهب المستمر للاستفسار بغرض الفهم، إنه التحدي ومزيد من التطلع لتوجيه الواقع الراهن الذي طغى عليه التجميع دون تدبر أو إعمال العقل، إنها دعوة إلى الحركة بدل السكون .

ترتسم ملامح هذه السكينة، عند طه حسين، حيث يعرضها وهو بارم بها كاره لتفاصيلها، "فما أعرف شيئا أضرّ بالحياة العقلية وأدفع لها إلى البلادة والجدب ومن هذا الذي كاد شبابنا وشيوخنا من الأدباء والمثقفين يتورطون فيه من الجمود والخمود والركود والرضا بما كان والاطمئنان إلى ما هو كائن والاستخفاف بما يمكن أن يكون ..."2

لكي تتضح الصورة أكثر، فإن طه حسين يكشف أن غرضه من بث هذه الروح القلقة، والحث على العقل المتيقظ، سيكون القصد من ورائه تناول (تراث القدماء)، من المسلمين والعرب، وفق منطق يحفظ للمحدثين موقعهم وموقفهم، وذلك بضمان عدم الذوبان في الآخر من حيث الانتماء الزماني، والانسلاخ من اللحظة الراهنة، إنه التحام بالتراث وفق منطق تحديد الأولوية للواقع على التاريخ، وبالتالي مواجهة هذا التاريخ بالأسئلة حسب الحاجة،" التراث في الممارسة الكتابية عند طه حسين يرتقي إلى مستوى المسألة الإشكالية، فهو لم يكتف بالتصدي لموضوعات ومشكلات هذا التراث دراسة وتاريخا وقراءة وتحليلاً، بل كان يزرع كل حقل معرفي بأسئلة شائكة فيشيع الاضطراب في الذات القارئة والمقروء في الأنا الباحثة والموضوع في العقل والتاريخ معا".3حيث يؤدي هذا التوتر المنشود إلى خلق حركية تنتهي إلى الفاعلية الحقيقية التي ينجم عنها نتاج جديد ولو بعد حين.

إنّ طه حسين بذلك يكون قد "أرسى قلقا خصبا في تراث كان يبدو أنه ينطوي على استقلالية عقيمة في مسلماتها وبديهياتها وأرسى قلقا موازيا في علاقة التساكن بين الذات العربية ومخزونها الاحتياطي الهائل من الماضي، موقظا ومجددا "4.

حسين طه،(1987)، خصام ونقد.ط13،دار العلم للملايين، بيروت-لبنان ،ص57. 1

2 المصدر نفسه ،ص 56-57.

3 عيد عبد الرزاق،(2008)،طه حسين رائد العقلانية الليبرالية العربية،.ط1،دار رؤيا ، القاهرة ، ص241.

4 عيد عبد الرزاق، مرجع سابق، ص241.

من هنا يمكننا تتبع تناول طه حسين للشعر الجاهلي ، باعتباره من الأبعاد الثابتة للتراث القديم، حيث سيعمد إلى إعادة النظر في كينونة هذا التعبير الفني، لأجل ذلك انطلقت الأسئلة القوية الواضحة : حيث"يتساءل –يردد طه حسين – أنصار الجديد أهناك شعر جاهلي ؟ فإذا كان هناك شعر جاهلي فما السبيل إلى معرفته؟ وماهو؟ ومامقداره؟ ومايمتاز عن غيره ؟ويمضون في طائفة من الأسئلة يحتاج جلّها إلى رويّة وأناة، وإلى جهود الجماعات العلمية لا إلى جهود أفراد "5. إن خطورة التساؤل وفق هذا الشكل كان أكبر من أن يتقبلها العقل من أن تتقبلها لحظة المجاهرة بها، وهي بعد مرور ما يقارب قرنا من الزمن ستغدو أقل وقعا، رغم أنها من منطلق مبدأ (الشكّ)، وإعادة النظر في المسلّمات، ستكون جديرة بأن تستوقف كل باحث جسور ينشد الحقيقة الخالصة، إن عرض هذه التساؤلات بأناة لا تخلو من إشارات تمهيدية، على أن الأمر ليس مجال توافق، بل كما أن هناك من يقبل بهذا التسليم، لأن غيره من القدماء سلّم، فهناك في الجهة الثانية من يعارض ولا يرضى بالتسليم، يقول طه حسين في هذا الصدد:" وأنا مطمئن إلى أن هذا البحث، وإن أسخط قوما وشقّ على آخرين، فسيرضي هذه الطائفة القليلة من المستنيرين الذين هم في حقيقة الأمر عدّة المستقبل وقوام النهضة الحديثة وذخر الأدب الجديد "6، بالتالي فإن تتمة الصورة التي يباشر صاحبها إخراجها لحظة طرح السؤال الأهم-كما مرّ بنا- بجعل (أنصار الجديد)، هم الذين يتساءلون، ليكون بذلك قد دعم مشروعية سؤاله من خلال أهمية موقعه الذي نسبه لأنصار التجديد، بل سيقرن إمكانية عدم تقبل هذا الطرح بقدر ماهو صادم، بأن جزءا منه يرجع في الحقيقة إلى عدم تكيف ذهنية البعض مع قضايا التجديد .

إذا كان بعض المستشرقين قد تعرض لشرعية وجود الشعر الجاهلي، وظل ذلك يحسب ضمن مواقف، هي من خارج الثقافة العربية، فإن الجديد هنا مع تبني طه حسين لهذا (السؤال) الموجه إلى الشعر الجاهلي، سيجعل الثقافة العربية تنفتح على أمثال هذه القضايا التي تبدو للوهلة الأولى وكأنها تطعن في (مسلّمات) لا تقبل النقاش .

إنّ التسليم بحقيقة الشعر الجاهلي من عدمها وفق هذه الكيفية المطلقة، ستغدو قضية محل جدل، ومعها سيباشر طه حسين، الحديث عن (إنتحال) الشعر، "إنتهى بي هذا كله ...إلى أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعرا جاهليا ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور

5 حسين طه،(...)، في الشعر الجاهلي.دار المعارف، القاهرة ، مصر،ص17.

6 المصدر نفسه:ص14.

الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين..."7. يظل طه حسين ، متمسكا بقضية الإنتحال ، رغم عدوله عن فكرة (نفي الشعر الجاهلي)، بل في كتابه الذي اِستعاظ به عن السابق :(في الشعر الجاهلي) ، والذي أصبح تحت عنوان (في الأدب الجاهلي)، سيناقش بشكل موسع طه حسين الإنتحال بكثير من الإستفاضة، في أبعاد مختلفة، لتأكيده كظاهرة أدبية لا يمكن غض الطرف عنها في أدبنا الجاهلي الذي تم تناقله عن طريق الرواية، وبالتالي فإن الشعر الجاهلي يكون قد تضرر بما لا يدع مجالا للشك بسبب طريقة نقله الشفاهية، وما لازمها من مشاكل أخرى نتيجة غياب نص مرجعي مكتوب، إضافة إلى مشكل اللغة وتعدد اللهجات ومسائل تتقاطع مع مصالح متضاربة لفائدة المضامين الشعرية التي تتحول أحيانا إلى وثائق تاريخية، تخدم جهات معينة وتحط من شأن قبيلة وترفع من شأن أخرى باعتبارها كانت الأسبق إلى نمط الدولة الجديدة وعقيدتها السمحاء المتمثلة في الإسلام .

يعود طه حسين ويقدم العديد من الدراسات حول الشعر الجاهلي، لكنه باستمرار لم يغفل قضية (الإنتحال)، حيث يعمد إلى تقديم وجهات نظر تخص الأساليب المتعارضة أو المضامين غير المنسجمة وهكذا. وهو في الأثناء لا يستقر عند الآراء السائدة بخصوص معايير الحقب الأدبية التي هيمن عليها البعد السياسي ، وكذلك الشأن بالنسبة لبناء القصيدة الجاهلية وما يتعلق بالرأي المهيمن بكيفية مطلقة عن وحدة البيت، حيث عمد إلى كسر هذا الإعتقاد بتناوله معلقة لبيد في كتابه (حديث الأربعاء) كاشفا عن قوة ترابط مضامين الأبيات محققة -كحد أدنى – الوحدة الموضوعية .

أما النثر الجاهلي، فقد اعتبره طه حسين، من المسائل المحسومة، حيث فرّق أساسا بين النثر، والنثر الفني؛ الذي كابد صاحبه جهدا لإنشاء نص يحمل هذه الصفة، باذلاً معه جهدا بيِّنا من جهة الصيغة ومعالجة الأفكار، وهذا الصنف المتّصف ب(الفنية) يخلو العصر الجاهلي منه تماما، وقد اعتبر أن فاتحة النصوص التي اشتملت على البراعة الفنية من جهة الصياغة والأسلوب الرّصين إضافة إلى تنوع المضامين، سيكون (القرآن الكريم) هو الفاتحة المثالية لذلك.

7حسين طه، في الشعر الجاهلي، مصدر سابق،ص19.

إن مدار القول ابتداءً وانتهاءً، سيكون حول القرآن، حيث ظلّ طه حسين يعتبره النص المتواتر الذي يمكن أن نعرف من خلاله الكثير عن حياة العصر الجاهلي ، والذي قد لا يمثله الشعر الجاهلي على وجه أكمل، نظرا لما طاله من انتحال .

القرآن الكريم هو القوة الدافعة التي أدت إلى إحداث تلك التغيرات العميقة في مختلف المجالات، القرآن هو الذي كان وراء بعث أمة لم تكن بالأمس غير أمة مشتتة تتمركز حول طيف من القبائل المتنازعة، تحكمها اللحظة الراهنة ولا يشدّها أي رابط بالمستقبل، تشتغل على سلسلة من الحروب التي لا تنتهي، وهذا ما يذهب إليه طه حسين، حيث يعتبر :أن"... تأثير القرآن في تغيير التاريخ وتحويله أمة جاهلة غافلة أمّية شديدة التنافر والتدابر يضرب بعضها رقاب بعض وينهب بعضها أموال بعض ، فإذ هي تصبح أمة قد خُلقت خلقا جديدا فألفت النظام والأمن والعدل وطمحت إلى الرقي وظفرت منه بحظ موفور "8 ، وإذا كان هذا التأثير قد صاحب ظهور القرآن وأدّى إلى ما قد أدّى، فإنّ طه حسين، يعود فينسب فضل هذا التحول الهائل الذي أعقب ظهور الإسلام، للقرآن الكريم على وجه التخصيص، حيث يقول :"لولا القرآن لظلت الأمة العربية على جهلها وغلظتها وانقسامها"9

لأن النزعة العقلية هي التي تشكل مجال الرؤية عند طه حسين، لأجل ذلك فهو حين يتتبع القيم التي أضافها القرآن الكريم، إلى مدارك العقل العربي، سيخص منها تلك القيم التي دعا إليها الوحي استثناءا، ولم يسبقه إليها أحد، "القرآن إنما يتحدث إلى الناس عن أشياء لم يتحدث إليهم بها أحد من قبله، يتحدث عن التوحيد فيحمده ويدعو إليه، ويتحدث عن الشّرك فيذمّه وينهى عنه، ويتحدث عن الله فيعظمه ويصف قدرته التي لا حد لها وعلمه الذي لا غاية له وإرادته التي لا ترد وخلقه للسماوات والأرض..."10 ، بعبارة أخرى، فإن تحقّق اليقين بالشيء ، سيزداد كلما أدرك العقل تميزه عن غيره، حين يبادر فيكون مبتدئا في الحديث عن أشياء ظل الجميع لا يدانيها ولا يقربها، إنّه الطريق إلى آيات الخالق الكبرى ، السماوات والأرض والشمس والأفلاك .

8حسين طه،(2017)، مرآة الإسلام،.ط9،دار المعارف، القاهرة ،ص132-133.

9 المصدر نفسه، ص133.

10حسين طه،المصدر نفسه،ص125.

القرآن بتأثيره، سيكون حاضر الأمة ومستقبلها، "إذا كانت هناك الآن وحدة إسلامية عامة أو شيء يشبه هذه الوحدة فبفضل القرآن وجدت وبفضل القرآن ستبقى" 11.

إن يقين طه حسين في نص القرآن الكريم، من حيث الصحة، والقدرة الإستثنائية على التأثير واستمرار فعله في النفوس في مجال الجمع بين أطراف الأمة المترامية، هي التي ستجعل هذا المفكر يدعو إلى مزيد من الدراسات العلمية لتحقيق منتهى اليقين بهذا النص العظيم، "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، لعل ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل ابن ابراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها"12.

إن هذا الإستفهام الضمني، هو كما يبدو لي، دعوة صريحة لإستنهاض بقية المعارف، للإشتغال على نص القرآن، وتتبع مضامينه، قصد تحقيق علاقة يحكمها يقين مطلق يتأسس على وسائل علمية من داخل هذا العصر ،حيث تكون تلك الوسائل الإقناعية متناغمة مع مستجدات هذا العصر الجديد.

القراءة وإعادة قراءة التراث، وأحداث التاريخ الإسلامي، من المسائل التي رافقت دراسات طه حسين ، في مشواره الأدبي والفكري والتاريخي ، وإذا كانت أسئلته قد حاولت أن تجعل العقل المعاصر يعيد تأسيس قناعاته ، فذلك راجع إلى كون هذه الممارسة هي السبيل الأمثل لتحقيق الوعي الصحيح الواثق بقضايا العصر، والذي يستمد من التراث قليلا أو كثيرا من المضامين التي تشكل له مرجعية لا يكتنفها ما يدعو إلى الإلتباس. من هنا فقد راح طه حسين يردّد:" وسبيل(العرب والمسلمين) إلى اليقظة الخصبة واحدة لا ثانية لها ، هي أن يذكروا ما نسوا من تراثهم القديم لا ليقولوا أنهم يذكرونه، بل ليعرفوه حق معرفته ويفقهوه جد الفقه ويحسن المتخصصون منهم العلم بدقائقه وتفسيره لغير المتخصصين"13.

أسئلة ما يكون:

---

11 المصدر نفسه، ص139.

12 حسين طه،في الشعر الجاهلي، مصدر سابق ، ص38.

13حسين طه ،مرآة الاسلام ، مصدر سابق،ص265.

الأسئلة الصارمة تواجه الحاضر وتحدياته، تسائل الأدب طبيعة ووظيفة ومعنى، تنشد المنهج الذي يقلص الأزمنة ، وتدعو إلى خيار العقلانية مبدأ ، لأنه يناسب اللحظة التاريخية .

لأن طرح السؤال، ستغدو أهميته أقرب إلى أهمية الأجوبة التي ينشدها البعض ولا يلقي بالا للأسئلة الجوهرية التي تمخضت عنها تلك الأجوبة، "إن خير العيش في العلم والمعرفة، هو عيش الأسئلة. وقد كان ريلكه شاعر اللغة الألمانية يقول: لكي تعرف الإجابات يجب أن تعيش الأسئلة 14."

معطيات الحياة تتبدل ، من عصر إلى آخر، لأجل ذلك فإنّ موقع الأدب الذي يمثل لحظة تعبير حر عن تجارب الأمم بغض النظر عن الغرض من وراء ذلك التعبير، من هنا يصبح الأدب حسب كل مرحلة على غير ماكان عليه في مرحلة سابقة، ومعه يجدر أن تتغير أسئلة الماهية والكيفية، وهذا ما سيتبدى جليا عند طه حسين، حيث يقرّ أن "الأدب في حياتنا الحديثة يعيش على الإذاعة والنشر، لا على إحسان المحسنين وعطف أصحاب الثراء والسلطان على الأدب، فالأديب يكتب ليقرأ الناس، والناس لا يقرأونه إلّا إذا نُشر...والكتاب والمقال لا ينشران حين يتحكم في نشرهما الرّقيب، والرّقيب يحضر على الناس أن ينشروا كتبهم وفصولهم حين تخوض هذه الكتب فيما لا تحب الحكومة ..."15.

الأديب في نظر طه حسين، مطالب أن يكون صاحب رؤية تخصه، وهو بالتالي يعرض العالم من خلالها، بل يجدر بهذا الأديب أن لا يحول شعره أو نثره إلى وسيلة ترضية، لقد "كان توخي إرضاء الملوك في العصور القديمة مفسدا للأدب، وإرضاء الجماهير في العصور الحديثة أشدّ له إفسادا"16، ومادام الأمر كذلك، فإن هامش الحرية كلما اتّسع ، سيكون ذلك أكبر ضامن لحركة الأديب وبالتالي القدرة على التعبير عن رؤية واضحة بالكيفية اللازمة، "الحرية قوام الحياة الأدبية الخصبة "17، وبهذا يكون طه حسين قد أدرك جوهر إعطاء الأديب فرصته الكاملة لإتاحة مجال القول دون حواجز تذكر.

---

14 مقال:عياشي منذر،ربيع صيف2013،القرآن إعجاز أم ابلاس؟.مجلة فصول ،العددان 85-86،.ص24.

15 حسين طه، خصام ونقد.مصدر سابق،ص10.

16طه حسين:خصام ونقد، مصدر سابق ، ص27.

17 المصدر نفسه ،ص9.

أمّا المضامين التي يتطلع الأديب طه حسين، أن يجعلها مجالا يعبر عنها الأديب، ويعالجها، وبالتالي يعرضها للناس، فهي ما سيكون مدار التساؤل، حيث يطرح طه حسين، استفهاماته حولها قبل أن يجيب:"لماذا ينتج الأديب شاعرا كان أو ناثرا؟".18وهذا شريطة أن لا يحيد الأديب عن مجال رؤيته وموقفه العقلاني وانتمائه الوجداني ، وخياراته العاطفية، ولأن السياق التاريخي يتدخل ليعدل زوايا النظر ، فإن طه حسين يعود ليجعل مجال السؤال يتسع ليشمل العصر القديم، حيث يقول :"سأنتقل من هذا السؤال وجوابه- يقصد ماذا ينتج الأديب – إلى سؤال آخر ليس أقل غرابة من السؤال الأول وليس الجواب عليه أقل إغراقا في البداهة من الجواب على السؤال الأول:فيما كان قدماء شعراء العرب يقولون الشعر ؟ وفيما كانوا يخطبون ؟وفيما كانوا يكتبون ؟"19.

الإجابة هنا، ستحدد طبيعة المعنى الذي ننشده بكيفية عفوية، حيث سيكون مقترنا بحياة الناس، محققا لثنائية (الأدب والحياة)، لا يخرج عنها ، ثم نفهم من طه حسين واقع المضامين العفوية التي يشير إليها صراحة أو تلميحا ، وهي التي تشتغل في الغالب على التجربة البشرية التي تجعل من الحياة محور تشكلها، حيث أن "أصحاب الأصالة في الأدب يجيبونك بأنهم كانوا ينشئون الأدب فيما كانت طبيعة حياتهم تقتضيه من فنون القول ".20ولأن الكلام يتتبع تشكّل الظاهرة الأدبية ومضامينها لدى القدماء فقد جاء أدب هؤلاء بالغ الإرتباط بتفاصيل حياتهم اليومية، فالشاعر يبتهج فيمدح ويسخط فيهجو ، ويهوى فيتغزل، ويتدبر فيقول الحكمة والنصح وهكذا.

تناول الأدب للمضامين ومعالجته للمعاني، ستختص بصناعته دون غيره، "الأدب يصوّر حياة النفوس والقلوب والأذواق على نحو لا يستطيع التاريخ أن يصوره ولا أن يسجله ولا أن ينقله إلينا نقلا صحيحا دقيقا "21. من هنا تتضح الفروق ، ذلك أن الفلسفة حين تفكر تمارس التجريد ، في حين أن الأدب حين يفكر يمارس التجسيد ، وبالتالي فإن الرسالة الصحفية التي تشتغل على الإبلاغية ستزيد عنها الرسالة الأدبية بالممارسة التأثيرية، ليتضح تميّز الأدب وليس لك بعد ذلك أن

18 المصدر نفسه،ص41.

19 المصدر نفسه،ص43.

20 المصدر نفسه،ص43.

21 طه حسين:خصام ونقد،مصدر سابق ، ص45.

تستغرب عن سبب تمسك الأمم بالأدب عبر مختلف العصور، إنما تتقدم أو تتراجع أهمية أجناس أدبية عن أخرى.

أما النتيجة التي يتوصل إليها طه حسين، بعد أن تبين له أن الأدب يصور حياة الناس، وبذلك فهو لا يلازم لغة العقل دون لغة العواطف، أو ينسحب على مدركات الحواس دون هواجس المشاعر، ما وقع منها في وعي الإنسان، وما ومض به لا وعيه ... بل سيكون هذا الأدب صنيعة أدواته الخاصة ومقوماته اللّصيقة المباشرة، إذ لا ينبغي أن يكون رهين مذهب سياسي أو توجه إصلاحي، "الأدب غاية في نفسه والأديب يكتب لأنه لا يستطيع إلاّ أن يكتب ... فإمّا أن يسخّر الأدب فيكون وسيلة من وسائل الإصلاح أو سبيلا من سبل التغيير في حياة الشعوب، فهذا تفكير لا ينبغي أن نساق إليه ولا أن نتورّط فيه، وليس معنى هذا أن الأدب بطبعه عقيم... ولكن معناه أن الإصلاح والتغيير وتحسين حال الشعوب وترقية شؤون الإنسانية أشياء تصدر عن الأدب صدورا طبيعيا كما يصدر الضوء عن الشمس وكما يصدر العبير عن الزهرة"22. بعبارة أدق إنّها قوة الشيء في ذاته، لا قوته من خلال ارتباطه بغيره. وهذا الذي سعى طه حسين أن يؤكد عليها، منتصرا للأدب انطلاقا من قوته الفنية بعيدا عن بقية الاعتبارات، مشكّلا بذلك نوعا من الرؤية الأقرب إلى شكلانية عربية، رغم أن أعمال المدرسة الشكلانية، خلال تلك المراحل لم تترجم إلى اللغة العربية ولا بقية اللغات الأجنبية .

الأدب يتجلى كممارسة تامة غير منقوصة، متى اشتمل على رؤية واضحة المعالم، وبالتالي يتنزه عن الغرض، وهو ما يقدّم كإنتاج للقرّاء، ويكتمل له ذلك كلما توفّر هامش من الحرية، وعدم تدخل الرقيب ثم تأتي العفوية في المعالجة مع جعل الأدب غاية في ذاته، وليس وسيلة خاضعة لمذهب سياسي أو نزعة إصلاحية .

الأدب في تقدير طه حسين، يتخطى حدود (الإنعكاسية) التي ينسبها إلى الماركسيين، وبالتالي سيقلّصون دور الأدب، ويجعلونه يقتصر على عكس أوضاع الجماعة بنوع من الآلية، بل سيعمد الروّاد الماركسيون إلى جعل مهمة الأدب تنحصر للدعاية للحزب الشيوعي، بل يعتبر طه حسين، أن الأدب بفعله وتأثيره يتجاوز تلك الممارسات، ويصلح بالتالي أن يكون (ثوريا)، إنه"يمهد للثورة وينشئها، ويشِب تذوّقها في النفوس بما يلقي في قلوب الناس من الآراء الجديدة. وبما يصور في

22 المصدر نفسه، ص58.

عقولهم من القيم المستحدثة وحين ينقل أذواقهم من طور إلى طور، وحين يبغض إليهم القديم من أوضاعهم الإجتماعية، ويدفعهم إلى تغيير هذه الأوضاع"23.

على هذا الأساس عمد طه حسين إلى كتابة العديد من الأعمال الروائية، التي حاولت أن تؤسس لنواة مجتمع جديد يقطع مع الكثير من العادات السيئة، والتقاليد البالية، كالثأر وبقية النعرات القبلية ، وفي المقابل الحث على سلوك التمدن والإنخراط في الحياة الجديدة .

الأسئلة تطرح – إذا-عن الغاية من فعل الكتابة: لماذا يكتب الأديب؟والإجابة ، تأتي لرصد الغاية من هذا الفعل، حيث يتبيّن أنه يختص ب(تصوير حياة الناس) ولأن السُنّة الكونية لحياة الناس، تقتضي أن تكون جزءا من حركة التاريخ التي تعرف باستمرار ضربا من التطور، لذلك كان لزاما أن يمهد الأدب ل(الثورة)، وأن يكون منشئا لها كي يواكب هذه الحياة المتطورة، وبالتالي "يضع طه حسين كلمة (التطور) بين قوسين معتبرا (أن هذه الكلمة الصغيرة تدل على معان كثيرة لا تكاد تحصى) وحركة التطور في سياق نص (قادة الفكر) هي حركة تطور العقل "24.

إن التطور واستيعاب حركة التاريخ، وما يصب في هذه الخانة من رعاية اجتماعية، ستُعَدّ من القضايا التي شملها نقاش مستفيض خصوصا مع تناول فكر ابن خلدون، وقد اعتبر طه حسين، أن التطور في شقه المادي أو المعنوي، يلازمان بعضهما البعض، وإذا كان يبدي في ظاهر الأمر انشغاله بالقيم والمبادئ ومتعلقات العقل والوعي، فإن مردّ ذلك يرجع إلى أولوية هذا (الشق المعنوي)، باعتباره الأصعب من جهة إتيانه، والأدوم من جهة تحقّقه، مقابل (الشق المادي)، أو أن تطوره كبعد معنوي، حتما يؤدي إلى تطور الشق الثاني، حيث "تتبدى الأهمية النظرية لاستقراء طه حسين وتأسيسه لترسيمة (الشعر /الفلسفة) من خلال ما يحققه من وظيفة عقلانية في إنتاج وعي مطابق لتحديات الواقع المعاصر؛ فيما هو عليه ، وحاجاته إلى التغيير والتقدم "25.

وبما أن استمرار هذا الإيجابي سيقتضي عند طه حسين، ارتفاع مؤشر استشعار تردي وضع تلك الأشياء (المعنوية) بين الناس، لأن انعدام ذلك الحس سيعني بالضرورة انصراف الناس إلى أولويات (مادية)، لا تقدّم ولا تؤخّر،"مصر لم تحس وجلا ولا فرقا حين أجدبت الحياة الأدبية،

23حسين طه ،خصام ونقد،مصدر سابق ص38.

24 عيدعبد الرزاق ،مرجع سابق،ص152.

25 المرجع نفسه،ص170.

ولعلها لم تشعر بهذا الجدب، بل أكبر الظن أنها لم تشعر به ولم تفطن له. وما يعنيها أن يجدب الأدب أو يخصب مادامت لا تخاف الجوع ولا تشفق من الظمأ "26.

إنّ غياب الشرط سيعني عدم تحقق المشروط، أي غياب الإحساس بتردي الحياة الأدبية، يعني انتفاء الذهاب بسرعة إلى نشر قيم التغيير والتقدم.الإنسان حسب تقدير طه حسين، أكبر من أن يظل رهينا للحاجات المادية وأسيرا للمتطلبات الإقتصادية .

الأديب طه حسين في هذا السياق، يبدي أسفه إزاء تبلد الحس الجماعي وبالتّالي تعطّل روح استشعار جدوى تلك الأشياء المعنوية التي تضع الإنسان في مربع إنسانيته ، وبالتالي تجعل الأديب يتولى دوره ويدرك أن هذا الإنسان أصبح مؤهّلا، لتصنع من خلاله بكتاباتك الأدبية ، فعل التغيير المنشود ؛ يقول طه حسين مبديا حسرته:"عفا الله عن مصر ما أشدّ إهمالها للعقل والقلب والذوق وما أشد تقصيرها في ذات الأدب والفن والعلم "27.الإنسان بإهماله الشديد لهذه القيم، فهو يتخلى عما يميزه كإنسان وبالتّالي، فإن العمل على بعث هذا الحس في نفسه هو بداية التصالح مع ذاته، التي تصبح مع مرور الوقت ، مؤهّلة للمبادرة إلى القيام بالفعل المناسب .

أسئلة ما ينبغي أن يكون:

يواجه طه حسين، التراث بأسئلة تعيد النظر في تلك القناعات التي صاحبت العقل العربي طويلا، بواسطة مسلمات لا تقبل النقاش، وإذا بها في الحقيقة ،كان لزاما أن يفحصها العقل ويعيد فيها النظر مجدّدا ، حسب حاجة العصر؛ وهذا ما سيكسب (التراث) ، طاقة متجددة وحضورا فاعلا في الوقت الراهن بدل أن يكون وسيلة معرقلة ، وبذلك يخرج هذا (التراث) من الإستعمال النمطي الذي لا يقدم ولا يؤخر إلى استعمال محفوف بالنجاعة ، دافعا إلى النهضة المنشودة.

ثم يواجه الأديب طه حسين، الحاضر، من خلال الممارسة الفنية في مضامينها الأدبية، ويتم طرح الأسئلة عن جوهر المعالجات الفنية لدى الأدباء، وقد يتجاوزها إلى النقاد، حيث ينتهي الأمر به كمتمرس يعرف أسرار هذا الفن ، إلى جعل الأدب جزءا لا يتجزأ من حركة المجتمع وبالتالي يمنحه صدارة الفعل، ويجعله يمهد للثورة وينشئها، بغرض تحقيق الإنتقالات المنشودة .

---

26 حسين طه ،خصام ونقد،مصدر سابق،ص07.

27المصدر نفسه،ص07.

أما (أسئلة ما ينبغي أن يكون) ، فإنها ستتجه إلى ما يراد تحقيقه في زمن المستقبل، وهنا سيكون الرهان على الإنفتاح لتحقيق التغيير المنشود دفعة واحدة لصالح الأمة .

طه حسين الذي تلقى جزءا من تعليمه في فرنسا، وخبِر حقيقة الحياة هناك واطّلع عن كثب وعايش البون الواسع بين تخلف وطنه وأمته، ورقي الأمة الفرنسية وتطور أوضاعها، وبالتالي استقر في وجدانه وعقله ، ضرورة استنهاض أمته للّحاق بركب المتقدمين .

لقد دعا طه حسين، بالفعل ، إلى ضرورة إصلاح منظومة التربية والتعليم، التي تهتم بالناشئة ، بوصفها مستقبل الأوطان وتطلّعها من خلاله إلى الغد القريب ، ولأن هذه الحلقة تكتمل مع التعليم العالي، وقد اتضح له تخلف المناهج على مستوى الجامعات المختلفة، وبدا أسوأ حالا في جامعة الأزهر التي تكتسي أهمية خاصة، حيث استمرت تدرّس وفق الطرق التقليدية، فجاءت مطالبات طه حسين، مع أصوات أخرى؛ فكان الشروع في الإصلاح وإدخال التعديلات على المناهج والبرامج التعليمية. ذلك أن هذه المسائل ترتبط بأهم المصائر ، يقول طه حسين :"الدفاع عن حوزتنا والذياد عن حرمنا والصيانة لإستقلالنا ؛كل ذلك يكلّفنا ويفرض علينا أن نتهيأ لأمور الحرب كما يتهيأ لها الأوروبيون وأن نوجّه لونا من ألوان التربية والتعليم عندنا، نفس الوجه الذي يتجه إليه الأوروبيون عندما يهيئون أبناءهم للدفاع عن أرض الوطن "28. بعبارة أخرى ، فإن النموذج الأمثل يكون قد تحقق في الوقت الراهن لدى الأوروبي، وغاب في المقابل، عن مصر والأمة العربية وحل محله التخلف الشديد ، لأجل ذلك يجدر الإنفتاح على هذا النموذج ، والإقتداء به إذا كان سيجعل منا أمة تدرك المستوى الذي آلت إليه.

يجدر كذلك أن ينخرط الفعل الأدبي في حركة مواكبة هذا التطور أقصى ما أمكن، وبالتالي جعل الجماهير تدرك حجم المسؤولية التي تنتظرها، يقول طه حسين :

" الشيء الذي أفهمه وأطلبه و ألحّ فيه ...هو ألاّ يجمد الأديب وألا تخمد جذوته ولا يكون صدى للماضي ليس غير، وإنما يمضي مع الدنيا من حوله فيتطور معها ويصوّرها في حاضر الأمر ومستقبله كما صوّرها في ماضيه "29. بالتالي يصبح هذا التطور حقيقة، إذا أحسنت الأمة الإنفتاح والتواصل مع الأمم المتقدمة وأوروبا هي الفرصة المواتية من حيث القرب الجغرافي ،

---

28 حسين طه ،مستقبل الثقافة في مصر ،،دط،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة. ،ص42.

29 حسين طه ،خصام ونقد، مصدر سابق، ص64-65.

ووجود الكثير من نقاط الإلتقاء التاريخية ، وبناءً على هذا الإحتكاك ستتم الإستفادة مما تحقق على صعيد الإزدهار والتقدم، وهذا لا يتعارض مع مبادئ الأمة ومصالحها-كما يرى طه حسين – بل إن الأجداد وفق تبريره اتخذوا نفس المسلك حين انفتحوا على حضارتي الفرس والرّوم .

إنّ طه حسين، ليس لديه ما يخفيه حين يتعلق الأمر برؤية مصير وطنه، على اعتبار وضعيته الراهنة مقابل ما آلت إليه أوطان أخرى يتم حسابها ضمن ركب المتقدمين، حيث يكفي فقط الأخذ بالأسباب التي أخذ بها الأوروبيون دون تحفظ، وهو ما جاء على لسان طه حسين:" فإذا كنّا نريد هذا الإستقلال العقلي والنفسي الذي لا يكون إلّا بالاستقلال العلمي والأدبي والفني، فنحن نريد وسائله بالطبع .ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، لنشعر كما يشعر الأوروبي، ولنحكم كما يحكم الأوروبي، ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ونصرف الحياة كما يصرفها"30.

تأتي الأسئلة الصعبة، لتحديد المصير الوجودي للأمة، (المصرية)، التي شملها كلام طه حسين تخصيصا، وذلك في ظل مناقشة الإنفتاح على الآخر الأوروبي إذا اختارته أو أعرضت عنه، حيث جاءت أسئلة عميد الأدب على النحو التالي:"فهل ندعو إلى فناء مصر في أوروبا إذا دعوناها إلى أن تحتفظ بهذه اللغة وهذا التراث وتنميهما ... وحتى لا يكون للغة أخرى ولا لتراث آخر عليهما فضلا ؟".ثم يضيف"هل ندعو إلى فناء مصر في أوروبا إذا دعوناها إلى أن تحفظ لهذا التاريخ حرمته وتثبت أنها حريصة على أن يكون حاضرها ومستقبلها خليقين بماضيها...وستظل عيالا على أوروبا لأنها مستمسكة بحياتها الحاضرة، ولا تريد أن تأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية ؟"31.

هذه الأسئلة تنشد الإنفتاح على الآخر الأوروبي، وتريد الإقناع بضرورة الإلتحاق بالإطار الحضاري للحضارة الأوروبية، ولا يكتفي بذلك بل يعمد إلى تبريره تاريخيا بفعل الأجداد الذين أخذوا بمنجزات الفرس والروم، وكيف أن مصر القديمة أسهمت في الحضارة اليونانية، وإساغته دينيا من خلال انفتاح أوروبا على دين المسيحية وتبنيه، مما لا يمنع كذلك أن تنفتح مصر ولها أن تحتفظ بالبعد الديني الذي يخصها، وتبني البعد الحضاري الذي هي بحاجة إليه، وعقليا فإن تقدم أوروبا وتخلف مصر يحقق لمصر التقدم المطلوب في حال الإنفتاح خلال ظرف زمني وجيز.

---

30 حسين طه ،مستقبل الثقافة في مصر ، مصدر سابق، ص44-45.

31 المصدر نفسه،ص55-56.

إن طه حسين، الذي ظل باستمرار يدعو إلى البذل والمشقة في سبيل تحقيق الشيء، مهما كان، ينسى أن الإندماج في الزمن الحضاري الأوروبي الذي لم يسهم المصريون، وإذا وسعنا الدائرة محسوبون على الحضارة العربية، في تكوينه وتطويره، سيعد خرقا لقانون (البذل والمشقة) لتحقيق غرض من الأغراض؛ وأكثر من ذلك قد تكون نتائجه وبالا على الأمة لأنها حتما ستذوب في مكونات الآخر الأوروبي خصوصا إذا علمنا أن قوة العنصر الحضاري جارفة بتأثيرها وجاذبيتها، في حال تحقق هذا التبني من الأضعف حيال الأقوى .

رغم التطمينات التي يبثّها طه حسين بخصوص القدرة على الصمود من جهة الرصيد الحضاري المصري، وطبيعة الدعوة إلى الإنفتاح وكيفيتها، "أنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا ولا إلى أن نجحد ماضينا ، ولا إلى أن نفنى في الأوروبي. وكيف يستقيم هذا وأنا إنما أدعو إلى أن نثبت لأوروبا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها ونمنعها من أن تأكلنا؟!"32. يبدو أن استقلال الأرض تحقق أيام ظهور مؤلف طه حسين، ولكن الذي استجد سيكون أخطر، حيث سيتعلق باستقلال الإرادة السياسية، واستقلال الإقتصاد واستقلال المخططات الثقافية، إنها مخاطر جديدة لا عهد لطه حسين بها، ترتبط هذه المرة بالعولمة ومحاولة فرض النموذج الغربي بناء على مخططات مدروسة تشرف عليها هيئات رسمية ويتم تنفيذها وفق خطة محكمة .

الخاتمة:

الطموح مشروع، وكذلك الوسيلة مشروعة وما كان من أجوبة على الكثير من الأسئلة الصادمة التي طرحت من قبل عميد الأدب العربي، يجدر أن نستفيد منها، ولكن يجدر كذلك أن تستجد الأسئلة لأن المتغيرات قد استجدت أيضا.إن أوروبا لم تعد تحظى بالمكانة المركزية ذاتها كما كان عليه الحال في مراحل سابقة عايشها طه حسين، وبوصفها النموذج الأمثل، والعالم العربي يكون قد تزحزح نسبيا حيث بدأ يتموقع وأخذ يبادر إلى تحويل (الغرب الأوروبي) إلى موضوع للدرس. رغم أننا لا ننكر المعوقات التي باتت تثقل حركة تطوره وتحول دون تحقق الإستقرار المنشود، ممثّلا في الكيان الصهيوني الذي يحدث الكثير من القلاقل بل ويتزايد تغلغله في الخاصرة العربية محققا أجندات متضاربة الأهداف. إنّ اسهامات طه حسين في الأدب واشتغاله على المكانة التي ينبغي أن يتخذها، هي بحاجة إلى مزيد من التطوير الذي ينبغي أن يظل قادرا على استيعاب هموم المجتمع،

32حسين طه ،مستقبل الثقافة في مصر، مصدر سابق، ص54.

وبالتالي جعلوا هذا الدور الفني يتسع أكثر ويتجه نحو اسهامات حضارية أكثر فاعلية. إن الأسئلة الصعبة الصادمة هي التي حددت بدقة عمق أزمتنا العربية، في انتظار أجوبة أدق.

المراجع:

1. حسين طه،(1987)، خصام ونقد.ط13،دار العلم للملايين،بيروت-لبنان.
2. عيد عبد الرزاق،(2008)،طه حسين رائد العقلانية الليبرالية العربية،.ط1،دار رؤيا ، القاهرة ،
3. حسين طه،(...)، في الشعر الجاهلي.دار المعارف، القاهرة ، مصر
4. حسين طه،(2017)، مرآة الإسلام،.ط9،دار المعارف، القاهرة
5. حسين طه ،2013، مستقبل الثقافة في مصر ،دط،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة.
6. عياشي منذر، ربيع صيف2013،القرآن إعجاز أم ابلاس؟.مجلة فصول ،العددان